سميرة
بنت الجزيرة العربية

ودعت آمالي

قصة

مكتبة نوميديا 19
Telegram@ Numidia_Library

منشورات زهير بعلبكي - بيروت

سميرة

بنت الجزيرة العربية

ودعت آمالي

قصة

منشورات زهير بعلبكي - بيروت

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

طبعة جديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء إلى الطالبة

12-06-2006

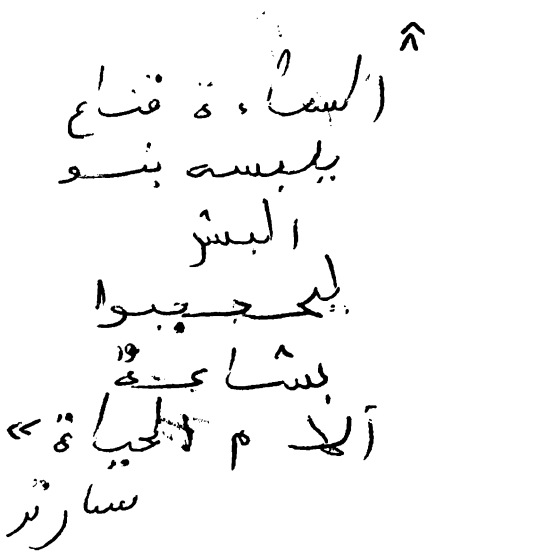

البشاشة قناع
يلبسه بنو
البشر
ليحجبوا
بشاعة
آلام الحياة»
سارتر

«قد يموت القديس اضال
ولكنه لا يموت لحنه حي
في عذابات تتطاير
تحت القبور »

هذه القصة دارت حوادثها في مدينة القاهرة ..
فإذا قدر لها ان تثير في نفس القارئ الرضا والارتياح فإنني سأترك قلمي ينساب ، لأن حب القراء لما أكتب هو ثمن كتاباتي ...
ويوم يكره الناس ما أكتبه فلن ترضيني كنوز الأرض ثمناً لكلماتي

«عروس تخرج وراء القضبان
سخطت عليها أمة الجار
لعشقها قديسا ضال »

5-05-2004

أنهيت قراءة هذه الرواية
في الساعة الرابعة صباحاً:

"وأنا لا أخاف من الحب
بل أخاف عليه
~~من زوال~~ شبق العذاب"
من زوال

الفصل الاول

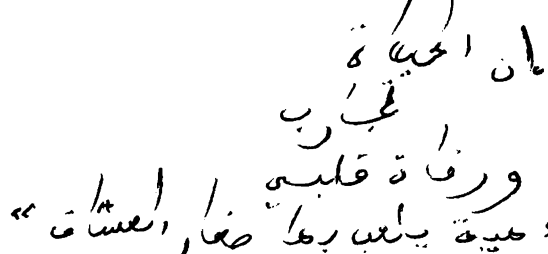

نشأت في بيت عريق تحيطه مظاهر الثراء والغنى ، بين أب من كبار رجال الأعمال ، ذا ذكاء حاد ، وثقافة عالية ، إلا أنه كان شديد المراس قاسي الحياة ، وقلما كنت أراه من كثرة أعماله .

أما والدتي فقد كانت تصغر أبي بسنتين ، وكانت موفورة الجمال والوقار ، إلا أن علامات الحزن ظاهرة على محياها ، ورغم ذلك كانت تتصنع السعادة أمامي

وأمام الناس ، وتلهي نفسها بإدارة منزلنا الواسع بمهارة ودقة ، مما أكسبها احترام مخدوميها ، وخـــاصة داده فهيمه ، التي كانت لا تفارق أمي مطلقاً .

كنت وحيد أبواي .. وكان تعلق أمي بي أشدّ من تعلق والدي ، ولعـل مرجع ذلك إلى شدة ميل كل منا للازمة الآخر .

وكان من أثر عناية أمي بي ، وإشرافها على كل كبيرة وصغيرة من شؤوني ، أني ظفرت في سن الخامسة عشرة بالمركز الأول بين التلاميذ في المدرسة .

وتعودت أن أقضي أيام عطلتي ، بأن أخرج مع والدتي وداده فهيمه ، إلى الحدائق أو لزيارة الأقارب .

وكان الذي ينغص صفو هنائي في كل عطلة ، ذلك السائق « أحمد » الذي أراه ينظر إلى والدتي نظرات كره حينما تلقي عليه بعض الأوامر ، مثل « العربيـــة

ليست نظيفة ، أو أنه لا يجب أن يعاكس خادمات البيت » .

وفي ذات يوم قلت لوالدتي :

ـ أنا لا أريد « أحمد » السائق فهو يضايقني وأنا لا أحبه .

فقالت لي والدتي وهي تتصنع الغضب :

ـ وما شانك يا وجدي في ذلك ، لا تتدخل فيما لا يعنيك وإلا غضب منك والدك .

وبعد هذا اليوم كنت لا أجرؤ أن أتدخل في شؤون البيت حتى لا أسبب المشاكل لوالدتي .

تخرجت من المدرسة فاخترت كلية الطب ، ورحبت أمي وأبي باختياري .

وكنت في ذلك الوقت أناهز الثامنةعشرة من عمري، وكانت شخصيتي تقوم على طراز من العادات والأخلاق يغاير الطراز الشائع بين غيري من الشبان .

فأما أخلاقي فانطواء عن الناس يحسبه الرائي صلفاً وكبراً وما هو بشيء من ذلك ، ولكنه الرزانة والوقار، والبعد عن سفاسف الأمور ، والترفع عن مخالطة كل من لا تعجبني أخلاقه .

سارت حياتنا على هذا المنوال إلى أن كنت يوماً عائداً من الكلية . فوجدت أبي وأمي يتشاجران ، ورأيت وجه أمي شاحباً تعلوه سحابة من الحزن .

فلما رأياني أخذ أبي مكانه على الأريكة بجانب المدفئة ، واستقبلتني أمي وعلى فمها ابتسامة مصطنعة ، وقالت لي :

ـ يا وجدي اطلع لغرفتك وانتظرني لغاية ما أحضر من عند الدكتور .. وما أن سمعت كلمة الدكتور حتى تقلص وجهي وسألتها في دهشة :

ـ أنت مريضة يا ماما ؟

فتطلع والدي إلي في غضب وقال :

ـ « الولد ده مدلع ، وعمره مـــا حينفع . وعلى العموم دي تربيتك يا ست » .. فاصفر وجه والدتي وتركت الغرفة دون أن تجيب على كلمات أبي .

ووقفت أنا حائراً أنظر إلى أبي يقرأ في كتابه وعلى وجهه علامات الغضب . وأحسست بضيق يمزق قلبي ، وإذا بصوته يعلو قائلاً :

ـ « إيه ده يا ولد مـــالك مبلم كده ، اطلع إلى غرفتك » ..

فأسرعت صاعداً إلى الدور الأعلى ، وقبل أن أذهب إلى غرفتي ، ذهبت إلى غرفة أمي لأستفسر عنها ! وإذا بي أسمع صوت أمي وهي تبكي بحرقة ، فـــاتجهت نحو البـــاب ، وسمعت داده فهيمه وهي تقول :

ـ يا ست حرام تعملي في نفسك كده .. بكره تتعدل ويصفى الجو .

وردت عليها أمي :

ـ ده مش إنسان .. مش كفاية اللي باسمعه عليه .

وأجابتها داده :

ـ يا ست ده برضه جوزك وأبو إبنك ..

وتنهدت أمي وقالت :

ـ ده ما عندوش عطف على الولد .

وسكتت أمي لحظة ، ثم استطردت :

ـ أنا عارفه.. هو بيكرهه عشان بيكرهني.. يا ترى ده حيعمل فيه ايه لو مت .

وقالت داده :

ـ يا ست بعد الشر عليكي « إخزي الشيطان » روقي بقى لما أروح أقول لأحمد يحضر العربيـة عشان ميعـاد الدكتور .

فأسرعت إلى غرفتي قبل أن يراني أحد ، وما كدت

أرتمي بجسدي المتعب على السرير ، حتى انهمرت دموعي وأخذت أفكر في سبب مشاجرة أمي وأبي وكره أبي لنا . وتخيلت نفسي يتيماً من غير والدتي التي تحنو علي، وظللت على هذه الحال إلى أن غلبني النعاس ورحت في نوم عميق .

وإذا بي أستيقظ فجأة من نومي مذعوراً على أثر رؤيا أهاجت أعصابي ، وشعرت بالخوف يملأ قلبي .

فقد رأيت أمي في ملابس بيضاء ، وعلى وجهها تلك الابتسامة المصطنعة ، وكانت تهبط السلم مسرعة ، ومن حين لآخر ، تنظر إلي، فصحت أناديها ، فلم تجب . فنزلت وراءها ، ولكنني رأيت بيتنا وقد تحول إلى جزيرة وحولها البحر يرسل هديراً يصم الآذان، وأخذت أنادي على أمي ولكنها لم تجب ، وإذا بي أرى داده فهيمه تشد على يدي ، وتأخذني في أحضانها .. وكانت داده

فهيمة كما عهدتها ، لولا هذه الابتسامة الحزينة التي تضفي على وجهها وتحيطه بهالة من الألم والأسى ، والخوف والحسرة ...

وإذا بصوت والدي يعلو كالرعد ، فانتفض جسدي وأفقت على أثره من نومي، والعرق يغمر جبيني فنهضت من سريري .. وإذا بالليل قد ساد سكونه ، فهرولت إلى غرفة داده فهيمه ، وما أن أحست بوجودي في الغرفة حتى قالت منزعجة :

ـ باسم الله مالك بعد الشر .

وجلست بجانبها على السرير وأجهشت بالبكاء مريراً.. فربتت على ظهري وقالت :

ـ مالك يا حبيبي ، إيه اللي صحاك في الساعة دي ؟

وقلت لها وأنا قلق :

ـ كيف حال ماما يا داده وبتشتكي من إيه ؟

ـ إنها بخير يا حبيبي ...

ـ وقال إيه الدكتور ؟

ـ كفاية يا وجدي .. ماما صحتها كويسة ، لكنها بتشتكي من ألم قديم ..

ثم قامت وأدخلتني غرفتي وجلست بجـــانبي على الأريكة وقالت :

ـ حقعد جنبك لغاية ما تنام ...

وبعد ذلك لا أذكر كيف غفوت ؟ ولكني أذكر أني شعرت براحة كبيرة ، بعد أن طمأنتني داده على أن والدتي بخير .

سافر والدي في رحلة تتعلق بأعماله وتستغرق بعض الشهور .. وصادف ذلك أن أغلقت الكلية لعطلة نصف السنة وطلبت من والدتي أن نذهب إلى « العزبة » عند جدتي ، فرحبت بالفكرة .

وعزبة جدتي تبعد عن القاهرة بمدة نصف ساعة .. فوصلنا في ساعة الأصيل ، وكان الجو يميل إلى البرودة ! ولكن المنظر خلب لبي وشعرت بالراحة فتمنيت في تلك اللحظة ألا أعود إلى القاهرة وبالأخص إلى منزلنا المملوء بالحزن والكآبة .

ولما وصلنا إلى منزل جدتي الأنيق الصغير ، صعدت إلى غرفتها التي تتسم بالبساطـــة . وحينما رأتني جدتي أشرق وجهها واستقبلتنا أحر استقبال .

كنت كل يوم أخرج مع والدتي وجدتي . ونركب عربة يجرها جوادان تنطلق بنا إلى المزارع .

وكان الفلاحون يعملون في حقولهم بجد ونشاط ، وكانوا يقفون لتحيتنا عند مرورنا أمامهم ، وهكذا كانت هذه أول مرة أرى وجه أمي وقد عادت إليه نضارته ، وارتسمت عليه دلائل البشر والانشراح .

وقضيت أسعد الأيام بجانب والدتي وجدتي التي غمرتنا بحنانها وكرمها . وانتهت العطلة وعدنا إلى القاهرة .

ومضت الأيام وأنا أجتهد في دراستي ، ووالدتي تشجعني وتسهر بجانبي إلى أن أنتهي من مذاكرتي .. وكثيراً ما كنت ألاحظ عليها آثار التعب ، ولكنها كانت تتظاهر بأنها في صحة جيدة . وكم كنت أود أن تشاركني حزنها وتصارحني بما في قلبها ، و لكنها كانت تنظر إلي وتعاملني كما لو كنت طفلاً صغيراً كالذي كان يحبو بالأمس .

وفي يوم ، جمعت شجاعتي وقلت لها في لباقة :

ـ ماما ، طبعاً أنا دلوقت ما بقتش صغير ، وبودي أن أعرف ما يشغل بالك ، ولماذا تتصنعي السعادة ؟ هل ذلك من أجل والدي ؟

فدهشت لقولي وارتبكت ، ولكنها أسرعت قائلة :

ـ وجدي ، إن ما يشغل بالي هو أنت ، وأنا أريد أن أطمئن على مستقبلك ، فاوعدني بأن تبذل جهدك لتصبح طبيباً ماهراً مشهوراً ...

ـ ماما ليه غيرتي الموضوع .. هل هذا بسبب عدم مبالاة بابا لنا ؟

ـ لأنه مشغول يا ابني زي ما انت شايف ..

ـ إنتي زعلانة معاه ..

فاحتضنتني قائلة :

ـ هذه أشياء ستعرفها في المستقبل فلا تشغل بالك بها الآن .

فلم أستطع أن أطيل عليها الحديث ، وأخذنا نتكلم في مواضيع أخرى .

الفصل الثاني

مضت سنتان وأنا متفوق في دراستي بتشجيع والدتي ، وذات ليلة وقع الحادث الذي كان يخيفني دائماً ! وهو مرض أمي الذي أرقدها طريحة الفراش . ففقدت عقلي ، وحرمت من النوم ، وأهملت دراستي فكنت لا أبرح غرفتها ليلاً أو نهاراً . فكانت فاقدة الوعي لا تدرك ما يدور حولها . وأما أبي فكان اهتمامه بها قليلاً ، يحضر لقضاء ساعة بعد الظهر وباقي وقته في

الخارج . كنت أراه في بعض الأحيان ينظر إلي ويتمتم ببعض الكلمات ، وفي يوم أخرجني من الغرفة وقال لي :

ـ يا وجدي ، أظن أنت عارف إني مش عاجبني قعدتك وعدم ذهابك إلى الكلية ..

وبعد أن انتهى من كلامه نظرت إليه متوسلاً وقلت له :

ـ أنا لا أستطيع مفارقة أمي.. إنها في حاجة إلي..

فقال في لهجة صارمة :

ـ أمك بخير ، كلها يومين وتبقى عال ، بس أنت لازم تروح الكلية علشان امتحانك ..

فاستسلمت لأمره ووعدته بالذهاب إلى الكلية ..

وذهبت فعلاً ، ولكني كنت شارد الفكر.. لا أفكر في غير أمي التي تركتها جسداً نائماً لا يتحرك ولا يتكلم ، بل انها تنظر لمن حولها بحزن وألم ..

وعرفت من الطبيب أنها كانت تعاني من ضغط الدم .. مما سبب لها شللاً نصفياً .. وسوف تطول مدة علاجها .

وفي يوم ذهبت إليها ، فلما رأتني ابتسمت لي فأشرق وجهي ، وسعدت نفسي ، فجلست بجانبها أحدثها عن أيامنا الجميلة التي مضت .. وعن الأيام الآتية التي سوف نقضيها سوياً والمصيف الذي اخترته لها ، ولكني فضلت أن لا أخبرها عن مكانه لتكون مفاجأة ..

كانت تسمع حديثي وتبتسم ، ولكنها لا تقوى على الكلام . وكنت كلما أنظر إلى وجهها أدعو متضرعاً إلى الله ، أن يشفيها ويبقيها لي .

خرجت بعد ظهر أحد الأيام لأشتري لها هدية لتسر بها ، وترجع لها ابتسامتها المشرقة أو التي كانت تتظاهر بها أمامي .

وفي طريقي رأيت جماعة من الناس يقفون في الشارع ووسطهم فتاة فاقتربت منهم وسمعت بعضهم يقول :

ـ الحمد لله على سلامة الآنسة ..

والبعض يقول :

ـ ده الأفندي غشيم في السواقة وعايز الحرق .

فنظرت إلى الفتاة وإذا بها جميلة الشكل جذابة الملامح عليها ثوب أصفر اللون تبدو عليه البساطة والجمال ، وفي يدها حقيبة خالية .. ونظرت إلى الأرض فوجدت كتبها ملقية ، فوقفت مكاني أنظر إليها ، وإذا بشاب أنيق يتقدم منها وينحني على الأرض ويجمع لها كتبها ويقول في تأسف :

ـ يا مدموازيل أنا آسف جداً ، ولكن يجب عليك أن تمشي على الرصيف ..

فنظرت إليه بعينيها الساحرتين وقالت في صوت عال :

ـ يا حضرة أنا مش عايزه التاسف . إنت اللي أعمى وما بتشوفش ..

فقال ضاحكاً :

ـ تسمحي أصلح غلطتي وأوصلك للبيت ...

فشدت منه الكتب ووضعتها في الحقيبة بغضب .. فضحك الشاب ومشى إلى عربته، وتفرق الناس وسارت الفتاة تعرج متألمة ... ووقفت تنظر يميناً ويساراً إلى أن وقع نظرها علي فتبادلنا النظرات ، ولم أكد أفق من دهشتي حتى رأيتها تركب عربة أجرة وتقول للسائق :

ـ على الجيزة يا أوسطى ، شارع ابن سينا أمام حديقة الحيوانات ..

فأحسست بأن الكلام موجه لي ، وحفظت العنوان

عن ظهر قلب وسرت وأنا أحس بنشوة السعادة تملأ قلبي ، وقشعريرة ممتعة تسري في كياني ، وتوالت الدقائق علي وأنا مستسلم لشعور لذيذ غامر إلى أن أخرجني من صمتي صديق لي في الكلية :

ـ إيه يا وجدي ، رايح على فين .. ومالك ماشي مش حاسس بنفسك ..

فضحكت وقلت له :

ـ أبداً ده أنا رايح أشتري هدية لماما ..

فقال متأثراً :

ـ إن شاء الله تكون صحتها اتحسنت .

ـ الحمد لله يا حسام ..

فلازمني صديقي إلى أن اشتريت شالاً مطرزاً جميل الشكل ، وودعته وذهبت في طريقي إلى البيت ...

وما أن وصلت إلى البيت حتى رأيت بضع سيارات

واقفة أمام المنزل فانقبض قلبي ، وأسرعت إلى الداخل ، فرأيت أبي جـــالساً ، ويديه على خديه ، فنظر إلي مضطرباً وقال :

ـ يا وجدي ، انتظر لحظة أمك تعبانة ..

فوقف قلبي وارتعدت فرائصي وأخذت أحدق في وجهه ..

ـ ماذا جرى ؟ لقد تركتها بحالة جيدة ..

ـ لا يا وجدي فهي في خطر .. ولكنه أردف كمن زلقت لسانه :

ـ لا .. لا .. هي بخير .

فجريت من مكاني كالمجنون ودخلت الغرفة ، وإذا بي أرى أربعة من الأطبـاء يفحصونهـا ، وداده فهيمه تبكي بصوت مكتوم ، وما أن رآني أحد الأطباء حتى أخرجني من الغرفة وقال لي مواسياً :

ـ أنت وجدي على ما أظن .. تشجع يا بني فإن الأمل قليل وأنت الآن رجل ...

وقطع الطبيب كلامه حينما خرج زملاؤه من غرفة والدتي وعلى وجوههم علامات اليأس فصحت وقد طاش صوابي :

ـ لا يمكن أن تموت فهي ستعيش ... ستعيش ...

وارتكزت على كتف أحد الأطباء لأتحاشى السقوط، فشد على يدي وأدخلني غرفة والدتي .

رأيتها تنظر إلي بحنان ، فجلست بجانبها منتفض الجسم خائر القوى وأمسكت يدها فوجدتها كقطعة من الثلج .. فقبلتها ونظرت إلى وجهها فتبسمت لي .. وضغطت على يدها وقلت :

ـ ماما ، أنت بخير .. ستشفين قريباً باذن الله ..

وأخذت تحرك شفتاها كأنها تود أن تقول لي شيئاً

ولكن رأسها مال فجأة وأحسست بارتخاء في يدهـا فصرخت بصوت رهيب :

ـ أمي لا تتركيني... إبقي معي .. أتوسل إليك.. ابقي معي .. أمي ... أمي ..

لكنها لم تجب .. لم تجب ولا ابتسمت .. وإنمـا رقدت إلى الأبد ..

أذكر أني بكيت مريراً .. وفجأة دارت الغرفة بي ولا أذكر مـا حدث .. إلى أن أفقت يوماً ووجدت نفسي نائماً على سريري والظـلام يسود الغرفـة ورأيت داده فهيمه بجانبي ، وكم كنت أتمنى أن يكون كل الذي مر بي ، كابوس أو حلم ثقيل ، ولكن الذي لفت نظري وعذّب نفسي ذلك الثوب الأسود الذي ترتديـه داده فهيمه التي ما أن رأتني أفقت ، حتى حدقت في وجهي بعينين فاحصتين جاحظتين ، ثم قالت :

ـ الحمد لله يا ابني اللي قمت بالسلامة يا حبيبي ، أنت كنت على الحالة دي من يومين .

فلم أجبها وإنما حدقت في الفضاء استرجع ذكرى الأيام الحزينة التي مرت ولن أنساها مدى الحياة .

ظللت على هـــذا الحزن زمناً طويلاً وأنا لا أذوق طعم السعادة التي غابت عني وكيف تكون الحياة بدون عطف وحنان،ووجه صبوح يهلل، وفم يبتسم .. ظللت أقاسي وأكتم في قلبي عذاب الفراق وألم الصدمة ..

الفصل الثالث

مرت الأيام وتلتها الأسابيع والأشهر .. وأنا أشعر بالوحدة والكآبة .. كنت أشعر بفقدان أم حملتني .. أم أنجبتني .. أم أرضعتني .. أم ربتني .. ثم أم حمتني .. ثم أم ماتت وتركتني وحيداً في هذه الدنيا القاسية ..

كنت أبحث عن شخص ما .. يملأ حيـــاتي .. يملأ الفراغ الذي تركته لي الأيام أعيش منه بعد موت أغلى حبيب ..

أخذت أبحث عن هذا الشخص الذي يملأ فراغ حياتي ويمنحني الحب والحنان اللذان كنت أتمتع بهما . وخطر على بالي صديقي « حسام » الذي لم أره من مدة . فذهبت إليه ، واستقبلني بحرارة وأخذ يعاتبني لعدم سؤالي عنه ورفضي مقابلة أحد كل هذه المدة .

عرض عليّ الذهاب إلى كافتريا هيلتون ، فرحبت بالفكرة ، وجلسنا نجتذب أطراف الحديث ، وفجأة رأيت عيني صديقي تتركزان على باب المدخل ، وقال مبهوراً :

ـ يا أخي شوف الجمال ده ، المكان نور ..

فادرت رأسي بتكلف ، ونظرت إلى المكان الذي أشار إليه ، فما أن رأيتها حتى دق قلبي طرباً ، فما أجمل هذه الصدفة التي جمعتنا .. وظللت أحدق فيها إلى أن أخذت مكاناً ليس ببعيد عنا .

كانت تجلس هي وسيدة وغلام ، وما أن تعلقت عيني بعينها حتى رأيتها تبتسم بعذوبة ورقة . وقاطعت ابتسامتها لي شابة تقدمت إليها وصافحتها بحرارة وإذا « بحسام » يصرخ قائلاً :

ـ خلاص عرفت مين هي ..

فسألته في خبث :

ـ من هذه يا « حسام » ؟؟؟

فقال في مكر وثقةٍ من عرف ما بداخل نفسي :

ـ يا سيدي اللي من وقت ما دخلت وأنت عينيك مانزلتش من عليها كانك تعرفها من زمان ..

فقلت ضاحكاً :

ـ وازاي عرفتها .. اسمها ايه ؟

حلمك عليّ شويه . غداً ساعرف لك كل أخبارها ..

شايف « أحلام » اللي سلمت عليها ، دي صديقة أختي « ايمان » .. أنا تحت الخدمة يا « وجدي » .

فضحكنا سوياً ، ولم يكف « حسام » عن الكلام ، إلى أن تركنا الكافتريا وودعته وانصرفت ..

ومنـــذ ذلك اليوم أصبحت تلك الانسانة شغلي الشاغل ، فكانت صورتها لا تبرح خيالي ، وأينما أذهب أتمنى أن أقابلها .

وجاءني « حسام » يوماً ، وفي أثناء حديثه أخبرني عنها فقال أن اسمها آمال وهي في مدرسة أخته . ووالدها أستاذ في كلية الآداب.. فسررت لهذه الأخبار . وأخبرني « حسام » أن أخته سوف تدعو بعض الأصدقاء لحضور حفلة شاي وربما تحضر أحـــلام ومعها آمال ، فوعدته بالحضور ، وتركته وذهبت لزيارة قبر والدتي ، وبعدها عدت إلى البيت،وما أن وصلت حتى وجدت داده فهيمة وعلى وجهها آثار الحزن والأسف وقالت :

ـ أبوك يا وجدي أحضر امرأة أخرى .. وأمرني أن أجهز لها غرفة المرحومة والدتك . وقال أنها ستبقى معنا .. وده يرضي مين بعد المرحومة .. والأدهى أنني سمعت أنها ليست زوجته ..

صدمت لهذا الخبر المؤسف ، ودخلت إلى غرفتي .. وأنا مشتت الأفكار .. وأخذت أفكر في هذا الخطب العظيم .. ذلك الخبر الذي حز في نفسي .. أن تدخل غريبة إلى منزلنا وتحتل مكان أمي بغير سابق معرفة وبدون أدنى داعي لذلك .. وأمي لم يمض على موتها بضع شهور .. وأخذت الهواجس تخامر فكري وظني إلى أن دخل عليّ والدي وقطع سلسلة أفكاري بصوته الصاخب القوي وقال :

ـ كنت أبحث عنك . أريد التحدث معك ..

ولم ينته والدي من كلامه ، إذا بفتاة في ربيع

عمرها تبدو عليها ملامح الاستهتار والميوعـــة تدخل علينا ..

ونظرت إليّ وقالت بصوت خافت مثير :

ـ وجدي ، إزّيك يا حبيبي ..

ونظرت إليها نظرة اشمئزاز وكراهية .. ولم أجبها على سؤالها ، ووقفت حائراً بين أبي وامرأة جاءت تحل مكان أمي .

وقال والدي :

ـ طنط سامية حتبقى عندنا يا وجدي ..

فلم أتكلم ، وخرجت من الغرفـــة وأنا محطم القوى .. وسمعتها تقول :

ـ بكره ياخد عَليّ ويحبني .. قوي ..

وشعرت كأني أسير في دوامة ، فكيف يمكنه أن يختارها ويبقيها معنا . ولماذا لم يتزوجها ، ربما لأنه يعلم

أنه ليس من اللائق أن يتخذها زوجـــة له . فهل جن والدي إلى هذا الحد .

خرجت من البيت وأنا أتلوى من الألم ، ومشيت على قدمي مسافة طويلة ، وأنا أفكر في حل لهـــذه المشكلة .. هل يمكن أن أترك والدي وبيتنا ؟ البيت الذي عشت وكبرت فيه . ومن يتولى مصاريف كليتي ومعيشتي؟ فصممت أن أتحمل إلى أن انتهي من دراستي . وبعد ذلك أنصرف لشأني .

أتى يوم الأحد الذي وعدت به « حسام» بأن أحضر حفل أخته فلم أقوَ على الذهـــاب ، واتصلت بحسام معتذراً .

الفصل الرابع

كان برنابجي أن أنهض الساعة السادسة للذهاب إلى الكلية قبل أن يستيقظ أحد في البيت ما عدا داده فهيمه التي تعد لي طعام الإفطار . ولا أعود إلا في ساعة متأخرة من الليل بعد أن أمضي وقتي مع صديقي « حسام » الذي استذكر دروسي معه في بيته . وكان « حسام » الصديق الوحيد الذي أثق به وأرتاح إليه .

مرت الشهور تلو الشهور.. وأنا لا أغير من برنابجي الذي وضعته لنفسي، بين كليتي وصديقي ودروسي . وفي

ذات ليلة عدت مبكراً عن عادتي إلى منزلنا .. ودخلت بهدوء تام ، وإذ بي أسمع أصوات ضحك وموسيقى صاخبة ، راعني ما رأيت .. رأيت كؤوساً مملوءة بالخمر وأناساً يترنحون من السكر . وما أن شعروا بوجودي حتى التفتوا جميعاً إلي بذهول واستغراب وأخذت أنظر حولي في الوجوه ، ولم أجد والدي معهم ، ولكني وجدت « سامية » واقفة وعليها ملابس خليعة ملتصقة بجسدها ، وفي يدها كاس من الخمر . ونظرت إلي وفي عينيها بريق فزع وميوعة .

وقالت ، تستعطفني وتغريني :

ـ أهلاً وسهلاً ، اليوم حضرت مبكراً عن عادتك.. والدك سافر ولن يرجع إلا بعد أسبوع .. تحب تجلس معنا .

فنظرت إليها باحتقار وقلت في غضب :

ـ عمر البيت ده ما دخلته الخمر . ولكن الحق على الرجل الذي فتح لك بيته .

ورميتها بنظرة اشمئزاز وبينما أنا في طريقي سمعتها تقول :

ـ يا جماعة انبسطوا ولا يكون عنـــدكم فكر ، أنا حاعرف أخلي أبوه يربيه ويعرفه مكانه في البيت ده .

خرجت من الباب الخلفي وأخبرت داده أني ساسافر إلى العزبة عند جدتي لقضاء بضعةأيام.وفي طريقي خطر ببالي أن أذهب إلى عمي وأخبره بكل شيء وخصوصاً أنه لم يكن هناك قطار في هذا الوقت ..

فتح لي الخادم مذعوراً وقال :

ـ اتفضل يافندم لما أخبر البيه . وبعد قليل رأيت عمي يدخل الغرفـــة مرتدياً ملابس النوم . فنهضت وصافحته .

ـ أنا آسف يا عمي ، اللي حضرت في وقت غـــير مناسب ولكني في ضيق ويمكن تقدر تساعدني .

وقال ، وكأنه يعرف ما أريد أن أقوله :

ـ تكلم يا ابني .. قول اللي في قلبك .

حكيت له عن والدي وعن سامية امرأته اللعوب : وكيف أستطيع أن أعيش في مثل هذا الجو ؟؟ ورجوته أن يكلم والدي ويفهمه أني أعيش في عذاب وأريد أن أعيش مستقراً هادئاً . وبعد أن انتهيت من كلامي ساد الصمت بيننا ورأيت عمي ينظر إلي مشفقاً وقال :

ـ يا وجدي ، أنا عارف من زمان هذه العلاقة التي بين والدك وساميـــة ، وعملت المستحيل لإبعاده عنها ولكن بدون فائدة . وأنا عارف أنها امرأة لعوب ، ويجب عليك أن تصبر من أجل مستقبلك ويستحسن لك أن تبعد عن طريقهـــا لكي لا تنغص عليك عيشك ،

وربنا يسعدك يا ولدي ويختار لك ما فيه الخير. وأوعدك بأني سأحاول أن أكلمـــه مرة أخرى . وسكت عمي ثم استطرد قائلاً :

ـ أنت ضيفي وستبقى معي إلى الصباح ، فطلبت منه معتذراً أن يسمح لي بالذهـــاب ، فاصر على أن أنام في بيته .

وانقلبت حياتي بعد ذلك من النقيض إلى النقيض ، فلم أرَ أثراً للبِشر والإشراق في حياتي . وأخذت أحس بصمت عميق مريب لم أستطع أن أتبين له سبباً.

انقطع هذا الصمت حين جاءني أبي ذات يوم وأعلنني بأنه عـازم على السفر هو و « سامية » إلى أوروبا لقضاء بضعة أشهر .. وخيل لي وقتذاك أن شيئاً ثقيـــلاً قد انزاح من فوق رأسي ، فسوف أبقى وحـدي في البيت وأرتاح من هذه المشكلة . وبعد مغادرتهم للمنزل أتيح لي

أن آكل بشهية .. وأنام مرتاح البال مستريح الخاطر .

ذهبت يوماً إلى « حسام » وقابلني بلهفة ، وقال وهو يرقص طرباً :

ـ جيت برجلك .. « آمال » جالسة مع أختي في الكافتريا . ووقفت مذهولاً انظر إليه .. فشد على يدي وأنزلني من بيته وسرنا في طريقنا إلى الكافتريا .

ووجدت نفسي مندفعاً جهة الكافتريا وأملي كبير في أن أراها وأن أمتع عيني بجمالها الهادىء . وما أن رأتني حتى أشرق وجهها ، فتقدم حسام وقال :

ـ « آمال محمد خالد » .. شقيقتي « ايمان » ، وطبعاً فيه معرفة قبل كده ..

فاقبلت آمال نحوي وهي تبتسم في عذوبة ورقة ، ثم صافحتني .. وضغطت على يدهـــا الصغيرة وأنا أحس بقشعريرة تسري في كياني وقلت :

ـ مرحباً بك يا آنسة «آمال».. إنني شديد الاغتباط بلقائك ؟!!

وجلسنا حيث قضينا وقتاً طيباً في أحاديث شتى .. وكانت عيناي تتركزان عليها عندما تتحدث .. وبدت لي من خلال حديثها طهارة قلبها، وأخذت كل ساعة تنقضي تمدني بفيض لا حد له من السعادة والنعيم .

وعقب خروجنا من الكافتريا سرنا إلى أن وصلنا منزل « حسام » .. وفي أثناء سيرنا نظرت إلى « آمال » نظرة طويلة فاحصة ، ثم تبادلنا النظرات .

فقال « حسام » وعلى ثغره ابتسامته العابثة :

ـ عليك يا وجدي أن توصل « آمال » إلى منزلها في طريقك ..

فقلت بعد أن بادلته نظرة شكر :

ـ بكل ممنونية .

فضحك وقال :

ـ طيب استأذن على الأقل

فاسبلت جفنيها واصطبغ وجهها بلون الدم ثم قالت :

ـ مفيش مانع ..

ومشينا وأنا لا أصدق نفسي أني بجانبها ، ثم امتدت بيننا فترة صمت قصيرة . وعندما أحسست أنها تريد أن تتكلم بادرتها :

ـ « آمال » ألا تذكرين أول مرة رأيتك فيها ..

فقالت ضاحكة :

ـ كيف لا أذكر ؟ يوم الحادث قصدك ..

ـ أيوه أنا مبسوط إنك لسه فاكره ..

ـ كان يوم وحش خالص .. الحق على الراجل اللي بيسوق .

ـ أيوه .. والحمد لله على سلامتك .

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت :

ـ سمعت أنك تدرس الطب وأظنها مهنة صعبة .

ـ لا مش صعبة قوي .. وأنت في أي مدرسة .

ـ المدرسة الانجليزية للبنات .

ـ وكيف تقضين وقت فراغك .

فسكتت قليلاً وقالت :

ـ أقرأ بعض القصص العربية والانجليزية .

فقلت وقد حانت لي الفرصة :

ـ أنا عندي مجموعة جيدة من القصص ، وإذا كنت ترغبين أحضر لك بعضاً منها ..

وأحست بما أريد أن أصل إليه وهو لقاءها ، فقالت في استحياء :

ـ أكون شاكرة جداً .

ـ يبقى أقدر أكلمك في التليفون ونتفق على ميعاد أحضرها لك فيه .

ووصلنا أمام منزل « آمال » وودعتها ، وأخذت أنظر إليها نظرة حب وأمل .. وشعرت في تلك اللحظة بدقات قلبي تخفق طرباً لهذا اللقاء .. وسرت حتى وصلت المنزل ودخلت غرفتي ولم يكد يستقر بي المطاف على سريري حتى أخذت أفكر في «آمال» ..وكل ما يتعلق بها يسعدني ويريح نفسي الثائرة الغاضبة الحزينة ..

وفي تلك الليلة لم تغمض عيني فقد كنت أحس بينبوع من الحياة يتفجر في دمائي ، وبسمة حلوة من الأمل ، تتلألأ كالصبح المضيء في خيالي .. وأحسست من أعماق قلبي أني أحبها .. وأريدها معي في كل وقت ..

وفي الصباح ، عندما ذهبت إلى كليتي لم أشعر بهذا الضيق الذي كان يجثم على صدري. وإنما أحسست بالسعادة وهي أكبر نعمة أنعم بها الله عليّ ..

وفي اليوم التالي غلب علي الحنين للقائها فامسكت بسماعة الهاتف،وطلبتها..فرد عليّ صوت عذب أحسست أنه صوتها الحنون :

ـ آلو .. آلو .. مين يافندم ؟؟

وأجبت في تردد :

ـ الآنسة آمال موجودة ؟

ـ أنا آمال .. مين يافندم ؟

ـ أنا وجدي ..

وغاب عني الصوت قليلاً ثم قالت :

ـ ستكون موجودة الساعة السابعة.. وشعرت بأنها ربما لا تستطيع أن تحادثني لوجود والدهـــا . فجلست أنتظر على أحر من الجمر إلى أن حانت الساعة السابعة فطلبتها وتكلمنا قليلاً ثم أخبرتني بأنها في انتظار صديقة لها ورغم ذلك طلبت منها أن تقابلني فترددت . ولكني

ألححت عليها ، واتفقنا على موعد في الغد ، في الساعة الخامسة بعد الظهر في كازينو الحمام . فقبلت بعد إلحاح .

ذهبت إلى الكازينو الساعة الخامسة إلا ربع وجلست على مائدة منزوية . أتلفت بعيني إلى الناس الجالسين ، وتمنيت أن يتركوا هذا المكان لأتمتع أنا و « آمال » بهدوئه . وما هي إلا لحظة حتى وقع بصري عليها بقامتها الرائعة ووجهها المشرق . فابتسمت وحيّتني في شوق ولهفة :

ـ أنا آسفة اللي تاخرت عليك .

ـ مفيش تاخير .. أسعد الأوقات عندي لما انتظرك

وبادلتني النظرات وأخذت أنظر إلى جمال وجهها وبريق عينيها فقالت وهي تنظر جهة النيل :

ـ ما أبدع نيلنا .. وما أجمل بلادنا ..

ونظرت في عينيها وأجبت :

ـ أمامي منظراً أبدع .. فحياتي بديعة جميلة بالقرب منك .

وضحكت بدلال :

ـ إنني أعشق النيل وهدوءه .. وأحس بأنني في الجنة اليوم .

ـ أنت الجنة .. والأمل .

وصمت برهة أرنو ببصري في عينيها ثم أردفت قائلاً :

ـ يبدو لي أحياناً أني أستطيع أن أمكث شهوراً وأعواماً مكتفياً من الحياة بالنظر في عينيك ..

ـ أتغنيك عيني عن غيرها من الأعين ؟.

ـ إنها تغنيني عن الطعام والشراب والنوم،وعن كل حاجات الحياة ..

ـ أنا أيضاً أحس بالغنى عن كل شيء عندما أكون معك .

وعندما لا تكونين معي !

ـ وعندمـــا لا أكون معك أفكر في الساعات التي قضيتها معك .

ومددت يدي فأمسكت بيدها وتحسست أصابعها برفق ، ثم جذبتهـــا إلى فمي .. ومسست بشفتي كفها الصغير .. وأحسست بنشوة .

وأقبل الساقي فشدت يدها واحمر وجهها ، ولكني أسرعت وسألتها :

ـ تحبي تطلبي إيه .

ـ نشرب قهوة .

تبادلنا المناجاة ، ومرت الساعات علينـــا ونحن لا نشعر بالوقت ، وقصصت عليهـا كل شيء عن حياتي

الماضية ، وكيف لاقيت العذاب بعد موت أمي وحرمت من الحب والعطف ، فعاهدتني آمال أن تكون بجانبي إلى الأبد .

وعدت بها إلى منزلها وأنا أفكر فيها وفي الحياة التي سنعيشها سوياً عندما يتحقق أملنـــا في الزواج ويضمنا بيت واحد وحياة واحدة .

وأخذت أرسم للمستقبل الذي أتمناه وأريـــده بعد إتمام دراستي .

الفصل الخامس

مرت عليّ الأعوام وأنا أجتهـــد وأتفوق بتشجيع آمال لي ..

وكنت ألقاها كل يوم ، وكانت لهفتها لا تنقطع حتى ولو لم يمر بين اللقاء واللقاء سوى بضع ساعات ، ونشعر دائماً باللهفة والشوق والحنين فبدأ حبها يزداد في قلبي بعد أن ملأ حياتي وشغل عقلي .

واستمر الحال على ذلك إلى أن جاء موعد تخرجي من

الكلية فاتصلت بها واتفقت معها بان تقابلني أمام جروبي.

وكان النهار يميل إلى الانتهاء والشمس قد مالت نحو الغروب، وأصبح الجو لطيفاً والنسيم عليلاً فوقفت أنتظر بلهفة وشوق . وكنت في ذلك اليوم قـــد أخذت عربة صديق لي وأخذت أفكر في المكان الذي سنذهب إليه ، وأخذت أنظر يميناً وشمالاً باحثاً عن آمـال .. وقبل أن تظهر سمعت صوتاً ناعماً يهتف من ورائي :

ـ سرحان في إيه !!!

والتفت إلى مصدر الصوت، وإذا بآمال تقف بجانبي وقد ارتدت ثوباً مفتوحاً أبيض اللون ، وصففت شعرها في شكل بديع ، فكانت تبدو آية في الجمـال . وشد كل منا على يد الآخر في شوق ولهفة وقـــد افتر ثغرها عن ابتسامة وقالت :

ـ جبت السيارة دي منين ..

ـ استلفتها من صديق لي..لأني كما تعلمينلا أحب أن أستعمل سيارة أبي . فانا اليوم عندي أشياء كثيرة أريد أن أعرضها عليك بعيداً عن أعين الناس ..

وركبت آمال بجانبي ومضت فترة قبل أن ينطق أحدنا بكلمة .. كنت أحس وهي بجانبي بسعادة لا مثيل لها . فصممت أن أكشف لهـــا عن رغبتي في اتخاذها شريكة لحياتي .

ـ عندي مفاجأة لك ..

ـ قولهـــا وحياتك أحسن قلبي ما يستحملش المفاجآت ..

فبادرتها بقولي :

ـ لقد أردت منذ زمن يا آمال أن أقول لك شيئاً كنت أتحرق شوقاً إلى قوله ، ولكني لم أتجرأ على البوح

به حتى الآن ، لأن ظروفي لم تكن تسمح لي ، ولا شك أنك كنت تعرفين ذلك وتعلمين أن وجودك يعني الكثير بالنسبة لي .. فلقد أحببتك منذ رأيتك أول مرة وتمنيت ألا نفترق دقيقة ، وأنا أريدك شريكة لحياتي هل فهمت ما أعنيه ، يا آمالي في الحياة .. هل تقبلين ..

فتالقت عيناها وارتسمت على وجهها مظاهر الفرح والخجل ، وأطرقت برأسها الصغير تفكر وقالت :

ـ إنني أقبل يا وجدي، ومن صميم قلبي.. سأسهر على راحتك إلى آخر لحظة من عمري ..

فقلت في فرح غامر :

ـ إذن أفاتح والدك بالأمر بعد حفلة التخرج .. سأطلب منه موعـــداً اليوم وسأكتب إلى والدي ما عزمت به ..

وتابعنـــا المسير ، وأنا شارد الفكر ، وآمال

تلزم الصمت .. وبدأت الظلمـــة تخيم والشفق الأحمر يتوارى مخلفاً بقايا داكنة أشبه بالرماد .

أوقفت السيارة بجانب النيل ، لكي نختلس من الزمن برهة ممتعة ترتوي فيها أنفسنا بعد طول حرمان .. وقد عزمنا على أن نكون لبعض . ومددت يدي على كتف آمال ، فسحبت كتفهـــا وابتعدت عني قليلاً فجذبتها إليّ وقلت :

ـ لا .. لا .. لا تبتعدي عني .. دعيني أمسك يديك إني أريدك بجانبي ..

ومدت يدها الصغيرة إلى يدي ، واستسلمت في نشوة إلى أحضاني ، وسرى بيننا مـــا يشبه التيار الكهربائي فأصاب كل منا برجفة ، ومسّ وجهها صدري ، ومس أنفي شعرها، ومست شفتي أذنها على غير قصد، فأصابتها رجفة سرت في أوصالي فتحركت ببطء إلى ذقنها الصغير

وأنزلت شفتي إلى شفتيها.. وساد سكون وشفاهنا مطبقة.. وبعد لحظات افترقت الشفاه بعد لقـــاء حار طويل ، وقالت آمال باسترخاء ودلال :

ـ وجدي .. وجدي ..

وأجبتها بلين :

ـ آمال .. يا آمالي .

ـ أحبك .. يا وجدي .

ـ أحبك .. يا آمال .. أحبك بكل نفسي .. وكل عرق ينبض في قلبي يهتف باسمـك .. إن حبي لك أقوى من الحب .. أحبك إلى الأبد ..

ونزلنا من السيارة، وأخذنا نتمشى بجانب النيل وكل شيء حولنا جميل .. وكانت صفحة السماء مليئة بالنجوم الساطعة .. والقمر يعكس ضوءه على مـــاء النيل .. وكانت أيدينا متشابكة وكل منا يشعر بالسعادة والأمل..

قالت آمال وهي تنظر إلى ساعتها :

ـ لقد تأخرت يا وجدي ..

ـ ما زال الوقت مبكراً ..

ـ لا .. يجب أن أعود يا حبيبي .

فركبنا العربة وسرعان ما وصلنا إلى منزلها وودعتها وانصرفت .

بدأت حفلة التخرج وكان يبدو على كل طالب منا السعادة والبشر بمستقبل عظيم ..

والذي شغل بالي أن آمال وعدتني بالحضور ولكنها لم تحضر .. ولكني سرعان ما طمأنت نفسي بأنها لا بد أن تحضر . ووزعت علينا الشهادات وانتهى الحفل دون أن يبدو لآمال أي أثر .. فاعتملت في نفسي الأفكار .. وشرد ذهني .. ترى أي حادث ألمّ بها .. ما الذي جعلها

تغيب عن هذه المناسبة العظيمة لدي.. والمهمة لمستقبلي.. لمستقبلنا معاً .. وسرعان ما خطر ببـــالي خاطر .. فأسرعت إلى أقرب هاتف لأكلمها :

ـ آلو ..

ـ مين يافندم ؟

وترددت قليلاً فقد كان صوتاً غريباً على مسمعي ..

ـ الست آمال موجودة ؟

ـ حضرتك مين عشان هيّ تعبانة شوية ..

فلم أجب وإنمـــا أقفلت السماعة وهرولت إلى بيت آمال ، ومن حظي أني كنت على موعد مع والدهـــا . شعرت بالضيق يمزق كياني وأنا في طريقي إلى منزلهـا .. وتساءلت في نفسي عن سبب مرضها ؟ وأخذت الأفـكار تلاحقني إلى أن وصلت المنزل فوقفت أمـــام الباب وضغطت على الجرس ، وفتح الخادم بعد قليل ، فسألته

عن والد آمال ، فطلب مني أن أنتظره برهة في الصالون، وذهب لإبلاغه بقدومي ..

لا أستطيع أن أصف شعوري .. فقد كنت خائفاً أن يقسو عليّ القدر فيحول بيني وبين آمال . وأفقت من شرودي بقدوم والدها الذي بادرني قائلاً :

ـ أهلاً وسهلاً يا ابني .

ـ أنا وجدي أحمد علاّم .

ـ مرحباً بك يا ابني .. أقدر أقدم لك خدمة .. لقد طلبت مقابلتي اليوم ..

ـ أنا يافندم خريج كليـــة الطب ، وحصلت على الشهادة اليوم..ووالدي تاجر معروف واسمه «أحمد علام».. أظن حضرتك سمعت عنه ..

ـ طبعاً يا ابني أنا أعرفه معرفة سطحية..

ـ أنا يافندم عرفت أنكم ناس محافظين ، وناس فيكم بركة ، وكنت تعرفت بالآنسة آمال في إحـدى الحفلات

وأعجبت باخلاقها .. وأنا قادم لأطلب من سيادتك يد ابنتك وسيكون لي الشرف العظيم ..

فقاطعني قائلاً وعلى شفته ابتسامة رضى :

ـ يا ابني هذه قسمة ونصيب .. وأنت رجل ممتاز ، وابن حلال ، ولكن لا بد أن أسأل آمـــال ، وأستشير والدتها ، فقد عودت آمال على أن تختار دائماً ما ترغب به .. فهي عاقلة ومتعلمة وتعرف مصلحتها . أترك هذه الحكاية الآن .. لأن آمال مريضة ..

ـ سلامتها يافندم إن شاء الله تقوم بالسلامة ..

ـ أشكرك يا ابني ..

تركت كارت باسمي ورقم هاتفي على المائدة وسلمت عليه وانصرفت .. كنت سعيداً بمقابلة والدها ..وحزيناً لمرضها الذي لا أعرف سره ، فصممت أن أكتب لها خطاباً أسأل فيه عن صحتهـــا . وجلست إلى نفسي أكتب لها :

« حبيبة القلب آمال ..

إليك يا أمل الفؤاد أبعث برسالتي هذه .. وبي شوق إلى رؤياك ، متمنياً لك الشفاء العاجل ..

هذه هي المرة الأولى التي أكتب إليك فيها إذ أنني مشغول عليك .. فيا أمنية القلب كنت في انتظارك يوم الحفل ، ولكن القدر أراد أن يفعل شيئا آخر وهو مرضك .. فيا ليتني كنت الطبيب المداويا .

عرفت أنك مريضة وفي الحال ذهبت إلى منزلك قبل الميعاد المحدد لي مع والدك .. وحينما دخلت منزلك أحسست برجفة بين جوانحي ، وتمنيت أن أراك .. بل خيل إليّ من فرط الحنين أن أدخل إلى غرفتك وأضمك إلى صدري، وأعترف لوالديك باني أحبك وإنك لي . فيتركونني أرعاك وأسهر على راحتك .. حتى يكتب الله لك الشفاء .

إني أستحلفك بحياتي أن تهتمي بنفسك ولا تهملي صحتك يا أمنية الفؤاد .

لقد استقبلني والدك بترحيب وأخبرني بأنه سوف

يسالك ويستشير والدتك ، وفهمت من كلامه بانه يميل لي .. وربنا يحقق أمنيتنا .

لقد عينت طبيبا في مستشفى الدمرداش . آمل أن تشفين وألقاك قريبا، ساكون في انتظارك يا أغلى غالية .

حبيبك وجدي».

مرت الأيام ثقيلة ، بطيئة ، قاسية ، بعد أن أرسلت خطابي إلى آمال،ولم أذق طعم النوم .. وحاولت الاتصال بها هاتفيا ولكن بدون جدوى .. فقررت أن أذهب إلى جدتي وأستحلفها بأن تذهب هي لوالدتهـــا فربما تعرف شيئا عن سبب مرضها .

فكان القدر رحيما بي ووافقت جدتي بعد أن شرحت لها حبي لآمال .. وقصدي الزواج منها .. كانت الساعة الخامسة ، حينما وصلت جدتي إلى منزل آمال ،

وأنا في غاية الاضطراب . وقبل أن أدخلها إلى البيت نظرت إليّ ضاحكة وقالت :

ـ إهدأ يا ابني واصبر ، إن الله مع الصابرين .

فنظرت إليها متوسلاً :

ـ إعملي جهـــدك يا جدتي .. سأمر عليك بعد ساعتين .

لا أستطيع أن أصف السعادة التي ملأت قلبي حينما ذهبت لآخذ جدتي من منزل آمال .. فرأيتها تقف بجانب جدتي والتقت عيناها بعيني . وجرت بيننا نظرة حارة ملؤها الحنين والشوق ، وأحس كل منا برغبة جنونية في الاندفاع إلى أحضان الآخر . وتلاشى كل ما في قلبي من خوف وانشغال عليها .. ولم أعد أبصر أمامي سوى آمال .. ربة أحلامي .. ومددت يدي مصافحاً ..

ـ كيف حالك يا آمال ؟ لقد شغلت بالي عليك :

ـ وانت كمان .

ـ مالك ؟. إنت لسه تعبانه .

ـ الحمد لله أنا أحسن دلوقتي ..

ـ إني أكاد أجن شوقاً ..

وقطعت جدتي لقاءنا الحار بقولها :

ـ إيه ده يا ولاد ، نسيتوا إني واقفة .

فارتبكنا وقلت لها ضاحكاً :

ـ آسف يا جدتي فقد كنت مشغولاً على آمال .

ـ أرجوك ، اتركها تطلع تستريح أحسن الدكتور لا يريدها أن تمشي على رجليها .

فقلت متلهفاً مذعوراً :

ـ عندك إيه يا آمال ؟

ـ بيقول الدكتور روماتزم في رجلي الشمال وعملت ورم .

فقلت مضطرباً :

ـ ونازله ليه ، اطلعي وريحي نفسك .

وقالت بحنان :

ـ وصلني خطابك مبروك للشهادة والوظيفة ..

وشكرتها وودعتها وأنا متألم لألمها داعياً لها بالشفاء وأخذت أسمع من جدتي عن كرم والدتها .. وعن نبل أبيها . وأنه موافق لأن آمال وافقت . وأنه في انتظارنا بالغد للاتفاق وتحديد موعد الخطوبة .

وذهبنا في اليوم التالي وتحدثنا في أمور الخطوبة وكان الجميع يتمنون لنا السعادة . أما سعادتنا نحن فلا توصف ولا يعرف مداها . وحمدت الله على أنه مَنّ علينا بهذا القبول وهذه الفرحة .

الفصل السابع

رجع والدي من رحلتـه وهنائي بعدم اكتراث ورجعت سامية وعاد البيت إلى الفوضى ..

وفي يوم كنت جالساً أتصفح جريدة الأهرام ، وفي انتظار مكالمة من آمال فإذا بداده فهيمة وهي في غـــاية الغضب تقول :

ـ والله يا حبيبي يا وجدي لولا غلاوتك ما كنت بقيت في البيت ده ولا دقيقة ..

فنظرت إليها متسائلاً :

ـ إيه يا داده ، مالك ، حد زعلك ...

ـ يا ابني مش عارفه اتلم على نفسي.. البيت مفهوش ترتيب من يوم ما رجعت الست سامية ..

ـ إستحملي يا داده عشان خاطري كلـــها يومين وآخدك عندي ..

ـ يا ابني ربنا يتمم بخير .. ده يوم السعد لما أفرح بيك .

ورجعت إلى غضبها ثانياً وقالت :

ـ ولا أحمد السواق من يوم والدك ما أحضر الست سامية وهو لا يعمل حساب لأحد وكأنه بيه . ده من أيام المرحومة وأنا نفسي يخرج .. ولكنها الله يرحمها كانت طيبة لا تحب أن تقطع عيش حد ..

ـ ولا تزعلي نفسك يا داده واعتبري نفسك ضيفة في هذا البيت ، لغاية ما نخلص ..

ـ ربنا يحميك يا ابني ويخليك ليه ..

ونظرت إليها وإذا بعينيها مغرورقتان بالدموع ، وتركت المكان وهي في غاية الحزن ... ووجدت نفسي أرجع إلى ذكرى الأيام الحلوة التي كنت أقضيها بجانب والدتي وأحسست بأن قلبي وفكري لم ينسيا ذكرى هذه الأم الحبيبة وأني لن أكف عن الذهاب إلى قبرها وأترحم على روحها الطاهرة ..

مرت الأيام وأنا أشعر بأن موقفي في هذا البيت مؤسف للغاية . فلا يجوز مطلقاً أن أقبل لرجولتي هذا الوضع المهين ، فجمعت شجاعتي وصارحت والدي بما لقيته من عذاب وآلام خلال هذه المدة ورجوته أن يبعد سامية عن طريقنا . وباني لا أطيق أن أمكث في البيت بعد الآن ، طالما هي فيه . ورجوته بأن يوقظ ضميره ويتزوجها إن رأى نفسه لا يستطيع العيش بدونها أفضل من أن يعاشرها بدون زواج . فلأول مرة رأيت

أبي يخجل من نفسه . ويحاول أن يجد سبباً لعلاقته مع سامية ، وشعرت من حديثه أني لن أصل إلى نتيجة .. فاستأذنت منه وانصرفت وأنا أشعر بالدماء تتصاعد إلى وجهي وببوادر الغضب تغلي في صدري ، وحاولت أن أسكت نوبة الغضب بمكالمة آمال .

- آلو ...

- وجدي .. حبيبي ..

- آمال وحشتيني قوي .. أقدر أشوفك ..

- إنت اللي وحشتني خـــالص .. مالك ، صوتك متغير يا وجدي .

- حصل سوء تفاهم مع والدي .

- وبعدين ياوجدي..أنا مش قلت لك تطول بالك ..

- مفيش فائدة يا آمال ..

- متزعلش نفسك يا حبيبي ..

- إيه رأيك نعمل كتب الكتاب والفرح يوم الخميس الجاي ...

- يوم الخميس .. ده أنت مستجعل قوي ..

- إنتي عارفه أنا متضايق ولن أستطيع المكوث بالبيت بعد الآن ..

- يا حبيبي عندك حق ...

- سامر عليك غداً في الصباح عشان نشوف إذا كان فيه شيء ناقص في فرش الشقة بتاعتنا ..

- طيب يا حبيبي .. سوف أنتظرك ..

ذهبت مع آمال في الصباح إلى بيتنا .. شقة جميلة مكونة من خمس غرف في غاية الجمال ، تطل على النيل . وأخذت أراقب عشيقة الروح وهي تنتقل كالفراشة من حجرة إلى أخرى ، فاشتركت معهـــا في ترتيب بعض الأشياء ونحن نشعر بالسعادة تغمر فؤادنا . ولم تفـارق

الإبتسامة شفتينا وأحسست بأن الكون كله أخذ يراقب فرحتنا .

وخرجنا إلى الشرفة المطلة على النيل وكانت الشمس دافئة ، فبدت الطبيعة في أجمل حللها متعة للعين وأخذ صفير النسيم يدوي في لحن هادىء جميل . وتشابكت أيدينا ونظرت في عينيها المملوءتان بالحب ، وقلت لها بحنان :

ـ سعادتك الراهنة تسر قلبي وأرجو أن يكون مستقبلنا سعيداً كحاضرنا ..

وكان اليوم المنتظر لكتب الكتاب مقتصر على أقارب العائلتين وبعض الأصدقاء .. فاتفقنا أنا وآمال أن نذهب إلى بيتنا بعد إنهـــاء الحفل ، فكانت الدنيا لا تسعنا من الفرح ، وبعد أن انتهى المأذون من كتب الكتاب أصبحت آمال ملكاً لروحي وقلبي .. ونفسي..

فكان بودي أن أخطفها من بين المدعوين وأهرب بها إلى مكان منزو لنتبادل الحنين والقبلات ، فتقابلت نظراتنا وقرأت خلالها في عينيها الألم وشحب لون وجهها ، فاسرعت إليها وقلت في قلق :

ـ مالك يا آمال ...

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت :

ـ مفيش حاجة بس حاسة بنغز في رجلي ..

وأحسست بها تتنهد في يأس وجلست على الأريكة :

ـ يعني يا رب أسعد يوم في حياتي أمرض فيه .

وأمسكت بيدها وإذا بها دافئة فاخذتها إلى غرفتها ووجف قلبي ورحت أحدق في وجهها الحزين وأرقدتها على السرير وحاولت أن أعرف النغز الذي في رجلها فوجدت نفسي طبيباً يائساً لا يدري ما يعمل لإنقاذ حبيبة الروح من آلامها ؟

وكان من بين أقارب آمال عمها وهو طبيب متخصص في أمراض الروماتزم . فكشف عليها كشفاً دقيقاً ، ثم قال في لهجة آمرة :

ـ لا بد من نقلها إلى المستشفى ..

ـ دكتور .. صارحني .. هل هناك خطراً ..

ـ لا بد من نقلها إلى المستشفى لنأخذ لهـــا صوراً بالأشعـــة مرة أخرى .. فانا كنت في شك بانه ليس روماتزم ..

وأمضيت ليلتي وأنا جالس بجانبهـا في المستشفى ، وهي راقدة كالملائكـــة فتوقف تيار أفكاري قليلاً وأنا أنظر إلى وجههـــا الحبيب . فوجدت نفسي أميل على وجنتيها، وتبادلنا القبل.وكانت شفتاها دافئتان.وضممتها إلى صدري ، وساد سكون ، وران صمت، وكان الكون كله قد كتم أنفاسه ووقف يرنو إلى حبنا ساكناً ، خشية أن تبدو منه حركة تزعجنا .

ومضت فترة طويلة وآمـــال بين ذراعي ، حتى أحسست أن آمال استغرقت في النوم، وضعت رأسها على الوسادة وأخذت مكاني بجانبها على الأريكة . وفكرت في الأمر ، لا بد أن يكون الخطر كبيراً ، فوق مـــا تصورت ، وفوق ما قدرت ، لكنني لم أفقد الأمل لحظة واحدة .. كنت واثق من أنها سوف تشفى ..

مرت الأيام وأنا أضرع إلى الله ليـلاً ونهـاراً ، ولا أكاد أذوق طعم الكرى.. كنت أعطيها الدواء بنفسي.. وأسهر على راحتها .. وعملت مع عمها وثلاثة من أكبر الأطباء لمعرفة سبب مرضها . وشخّص بعض الأطباء المرض أنه ورم في عظم الرجل ولكن عم آمـال أصر بانه أكثر من ذلك ..

ومرت الأيام .. ومرت الليالي .. أيام طويلة شاقة.. وليال كانت أطول .. ولا أستطيع أن أصف نفسي .. فقد كنت أشبه بالمجنون .. كنت أجلس في غرفتي شارد

الفكر عـــاصف الذهن ، تتلاطم أفكاري تلاطم موج استبدت به رياح شديدة فلم أعد أستبين منها أمري ، ولا عدت أميز بينهما إلا خليطاً من الحيرة واليأس والضلالة. وأحسست برأسي يكاد ينفجر . وأخذت أسأل نفسي : لا يمكن أن يكون مرض آمـال خطير إلى هذا الحد .. وأخذت أشعر باليأس والخوف يتراكمان في قلبي ..

فوق أشلاء قلبي
أشنق البلابل
وضفيرة شعرك الشقراء
لخطيئة التمرد
فوق أشلاء قلبي
يضيء نجم الحب مقبرة العشاق

الفصل الثامن

دخلت غرفة آمال فوجدتها منهمكة في الكتابة ، فقالت وهي تبتسم :

ـ لقد أتيت في وقتك يا وجدي .. كنت أكتب لك خطاباً وأنهيته .. هل تحب أن تقرأه .. فأخذت منها الخطاب ونظرت إلى عينيها الشاحبتين وتألمت ، ولعنت هذا القدر الذي حكم علينا بالعذاب .. وأخذت أقرأ ما كتبت وهي تنظر إلي :

« حبيبي وجدي

أكتب إليك والوقت يمر عليّ بطيئاً . إنها ساعات الكآبة والألم .. إن بُعدك عني لحظات يعذبني .. وأشعر معك أن الوجود جميل وأن الحياة تستحق أن نحياها ، وأن نبكي أيامها التي تنقضي من عمرنا دون أن نكون سوياً .

ولعل أجمل ما في إدراك الإنسان ، قدرته على أن يرى الماضي .. وأنني ألمح صور الأمس تعود بذكرى جميلة .

حبيبي ، أسالك كيف أنت اليوم ؟ .. وقلبي يتفانى في حبك ..

حبيبي ، أسالك كيف أنت اليوم ؟. وعيوني ترسل بريقاً هو بريق خافت لأنه بقايا حياتي .

حبيبي ، أسالك كيف أنت ؟ .. لأنني بك أصبح شيئاً له معنى .

فتعال إلي فقد هوتك نفسي واشتاقت إليك عيني .

تعال إليّ ، فمن يدري ماذا أكون غداً ، إن لم تكن أنت بقربي .

أذكر في عمرنا ليالي ، قصيرة في المدى ، لأنها حملت سعادة عمري .

إني أنا في دنياك اليوم ، فيا سعادتي وحبي ..

إني أنا في دنياك اليوم ، وحبك ملء قلبي وفكري.. أحبك والله يعلم مقدار حبي .

فأنا أرى وألح على ماضيّ أن يعود ، ويعود صفاء يومنا» .

وهبطت من مقلتي قطرات من الدموع .. دموع على الذكريات ، وألهبني الياس وأسرعت إليها قائلاً :

هذا أغلى خطاب تلقيته في حياتي ، وقبلتها وعزمت أن أذهب لأعرف النتيجة التي قررها الأطباء.. فاستأذنت من آمال على أن أعود لها في الحال .

دخلت إلى غرفة الدكتور ابراهيم عم آمال ، وكان معه بعض الأطباء الذين اشتركوا في تشخيص مرض آمال ، فحينما نظرت اليهم لمحت على وجوههم علامات اليأس .

وقال لي عمها في حزن :

ـ يا وجدي ، تفضل نتيجة الأشعة والتقرير ..

أخذتها منه وأنا أتطلع في وجهه .. وقرأت التقرير فصرخت في لهفة وفزع :

لا .. لا يمكن أن يكون هذا المرض ..

فرد عليّ عمها في أسى :

ـ يا وجـــدي أنا كنت شاكك في هذا المرض من البداية ، ولكن الآن تأكدت بعد ظهور النتيجة ، أرجو أن تتمالك أعصابك .

كان هذا النبأ صاعقة انقضت عليّ .. فمزقني من

الداخل إرباً ، وشعرت كأن خنجراً انغرز في قلبي .

وبقيت ساعة في مكاني لا أدري ماذا أفعل من هول هذه الصدمة ، وأخذت أستمع إلى الأطباء . فقال أحدهم:

ـ ألا يمكن أن نجري عملية لهذا الورم ..

فرد عم آمال :

ـ لا يمكن ، إنه سرطان في داخل عظم الرجل ، وإن أجرينا عملية فسيعود هذا المرض ويسبب خطورة أكثر ، ولكن سنحاول بقدر الإمكان .. والأقدار بأمر الله . سنجري العملية غداً بإذن الله ..

فقبضت على ذراع عمها كالمجنون ، وقلت وأنا أهزه بعنف شديد :

ـ لا بد أن هناك طريقة لإنقاذها .. لا بد ..

ـ يا وجدي سنحاول .. سنحاول ولكن ليس من أمل .

وأخذت أهذي وأبكي بحرقة :

ـ لا يمكن أن يقسو علينا القدر إلى هذا الحد ..

وأخذ عمها يواسيني وطلب مني أن أحضر العملية إن أردت وقال : وليس من الصواب أن تعرف آمال حقيقة مرضها وأنا سأخبر والديها ، ونظر إلي في عطف وتابع قائلاً :

ـ لا بد أن تشعر آمال بالسعادة ، يجب ألا تشعر بشيء وأنت طبيب وتعرف واجبك .

ثم أخذ يواسيني ويرشدني بما يجب أن أفعله .. وفي أثناء كلامه .. صمت لحظات قاسية وأخذت أراقب في حسرة هيكل حبي وهو يتهدم ويتساقط حجراً فوق حجر ، وسلمت أمري لله وشعرت بآمالي تتحطم .

ذهبت إلى غرفة آمال ، وحينما رأيتها أحسست على أثر ذلك برعدة هزت كياني فانتفضت على أثرها كالمحموم،

وعافت نفسي طعم الحيـــاة ونعيم السرور ولاحظت والدتها فظنت أني أود أن أكون وحدي معها فاستأذنت وتركتنا وأنا شارد الفكر لا أعرف ما أقوله .

فبادرتني آمال بقولها :

ـ مالك يا وجدي ؟

لم أقو على أن أرد عليها وانتفضت من مقعدي وعلا صدري ثم هبط عن تنهيدة حارة طويلة ، وأحسست بالكآبة تحز في نفسي، والدمع يوشك أن يطفر من مقلتي، وصدري يصطخب ببكاء حبيس .. وصحت كالجريح وارتميت على صدرها :

ـ آمال .. آمال .. يا أمنية الفؤاد إني أهواك .. وإني حبيس هواك .. أحبك أكثر من أي شيء آخر في الحياة .. وبعدك عني معناه ذهاب عقلي بل معناه موتي وفنائي .

ومدت يدها واحتضنتني في لهفة ثم قالت في صوت حنون :

ـ ماذا جرى لك يا وجدي ، أنت تعرف مدى حبي لك ، وأنك كل شيء بالنسبة لي .. فانت روحي ، فكيف أستطيع أن أتخلى عن روحي .

رفعت اليها عيني ، فبدا لي ما بوجهها من حزن وأسى ، وتذكرت نصيحة عمها بأنها يجب ألا تعرف شيئاً ، ولا بد أن أدخل السعادة إلى قلبها .

رحماك يا ربي كيف يمكن أن أواجه هذه الصعوبة وأنا أعلم أن الموت القاسي يتربص لها بين لحظة وأخرى. ونظرت إلى عينيها فوجدتها تبتسم لي .. وأخذت يدي ومستها بشفتيها في شبه عبادة ، وهمست قائلة وبوادر الأسى والحيرة تظهر على ملامحها :

ـ أتذكر لقاءنا أول مرة ؟

ـ أجل أذكره يا حبيبتي .

ـ لقد أحسست يوم ذاك .. أن مصيري قد بات معلقاً ، ومنحتني السعادة بحديثك الحنون وبتمييزك لي عن بقية البنات ، فشعرت بما تكنه لي من حب وإخلاص فانت لي وأنا لك فاستحلفك أن تخبرني بما في خاطرك .

وما لبث أن نفضت عن مظهري شبح الضيق الجاثم وقلت في هدوء :

ـ لا يوجد شيء في خاطري أقوله إلا أنك يا حبيبتي الصغيرة ملاكي .. وأن الله خلق لك جمالاً لا مثيل له .. وضحكتك تشبه تغريد عصفور جميل .. وأنه لم يخلق امرأة مثلك توفر لي سبل الراحة والطمأنينة والسكينة.. نعم لم يخلق سواك أنت يا صغيرتي ..

وبدت عليها مظاهر السعادة وهي جالسة أمـــامي ترمقني بين آونة وأخرى بنظرات ملؤها الراحة والحب.

وقالت بنبرات تفيض حباً وحرارة :

ـ هذه أسعد أوقات عمري.. إني أحس أنها تعويضاً عن كل ما ألقاه من ألم في رجلي ولم أعد أرجو من دهري إلا أن يشفيني الله ويبقيني بجوارك أحدثك وأستمع إليك ، وأقضي حوائجك .. هذا كل مـــا أرجوه ، أتراه كثيراً عليّ يا وجدي ؟

وأحسست من حديثها الحار المخلص بانهـــا أنبل مخلوقة في الحياة .. فقلت والحسرة تملأ فؤادي :

ـ ليس هناك ما يكثر عليك يا آمال ، لقد قلت لك إني أشعر دائماً بحاجتي إليك وإن شاء الله سوف تشفين قريباً .

وتلاقت شفتانا ورويداً زاد ضغط الشفاه ، وتمنيت ألا نفترق أبداً ومستني رجفة سرت في أوصـــالي ، وضممتها إليّ ضمة عنيفة وأخذنـا نتبادل القبل في لهفـة وظمأ .

طلبت منها أن تنام وترتاح وجلست أنا أرقبها إلى أن نامت.. وتركت الغرفة..

وذهبت إلى المكان الذي اعتدنا أن نتمشى فيه بجانب النيل. وأنا أشعر بحرقة أن آمال راسبة في أعماقي.. مختلطة بدمي.. سأكتم الداء عن كل مخلوق.. وسأذرف الدمع في سكون الليل وسأندب حظي حين لا يسمع شكواي أحد. لقد ودعت آمالي وأصبحت وحيدا في هذه الحياة القاسية.

يا آمالي ستبتعدين عن ناظري ولكن روحينا لن تفترقا.. إن في القلب نوعا مسخنا من الألم، ولكنني سوف أعيش على الذكريات.

هل نلتقي؟ يا لسخرية القدر ! ماتت روحي من الألم الدفين.. وسأشرب من كأس الذكريات.. وأسكر حتى

الثمالة.. وأسأل أين الدموع؟ جفت لتكوي الفؤاد! وأؤمن بالحب فوق الحياة.

ودعت آمالي وستبقين أنت في قلبي وسأحبك.. وأحبك إلى أن يخمد الموت أنفاسي ونلتقي.

-تمت-